المبحث الثانى عشر

النفس البشرية

« النفس مجمع من الأسرار محاط بسياج حصين يصعب إختراقه، وقد احتجنا لندخل لعالم النفس إلى عشرات السنين، فى حين أن كلمات من القرآن كانت تكفى لارشادنا ».

د: عبدالله المصلح

الأمين العام السابق لهيئة الأعجاز

فى القرآن الكريم والسنة النبوية.

رابطة العالم الإسلامى. مكة المكرمة

لقد كان كشف اللثام عن النفس البشرية يمثل لغزاً محيراً، فلم نكن ندرك الوظائف الحقيقية لها، أو ماهتيها، وكيفية أدائها لتلك من الأمور المعقدة من الناحية العلمية، ومع التقدم الذى شهدته الدراسات النفسية بدأنا نتعرف على النفس أكثر، وعلى وظائفها ودورها الحيوى.

إهتمت الدراسات النفسية بدايةً بدور النفس فى فهم علاقات الشعور والاستجابة نحو المؤثرات الخارجية، وكان السؤال المنطقى الذى يفرض نفسه:

هل يتم الأحساس مع فقدان الشعور؟

هل يتداخل الشعور مع الأحساس؟

من المسئوول عن أختيار التعامل مع الموثر الخارجى النفس أم الجهاز العصبى؟

وبتقدم الدراسات إتضحت العديد من نواحى الغموض، وثبت تماماً أنَّ التحكم فى الأداء الشعورى، والأختيار التعاملى مع المؤثرات البيئية والداخلية يكون مصدره النفس، وذلك من خلال معلومات موجودة ببؤرة الشعور، يتم على أثرها اتخاذ موقف تجاه الأحداث، وتختلف القدرة على اتخاذ هذا القرار من شخص لآخر طبقاً لكمية المعلومات الموجودة ببؤرة الشعور، وسرعة الربط بين المؤثر والمعلومات الموجودة أصلاً، ويدخل ضمن الاعتبارات الهامة فى هذه اللحظة مدى كفاءة الجهاز العصبى.

يمكننا من خلال ذلك أن نربط علاقة النواحى النفسية بأداء الجهاز العصبى والحواس المختلفة من خلال الأداء التكاملى البديع، فالخلايا العصبية مسئولة عن نقل المؤثر وتفسيره وفهمه وادراكه والاستجابه له بناءً على المعلومات النفسية المحفورة فى بورة الشعور.

وهذا ما أخبر به القرآن الكريم منذ أكثر من أربعة عشر قرناً من الزمان فى العديد من الآيات التى تناولت النفس حيث يقول الله تعالى فى سورة الشمس الآية (٨،٧).

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾.

فالآية الكريمة تعطى مؤشراً على أنَّ للنفس القدرة على الأختيار بين العديد من بدائل الصواب والخطأ، وهذا من منطلق الالهام الذى منحه لها الله فى صورة معلومات تمكن الإنسان من الحكم على طبيعة الأمور.

وفى الآية نفسها يذكر الحق أن النفس تمت لها عملية تسوية، والتسوية فى هذه الحالة تعنى إعطائها القدرة على الأختيار وعدم اجبارها فى ذلك، وهى بذلك حرةً فى اختيار ما تريد.

وفى الآية (٥٣) من سورة يوسف.

يقول الله تعالى:

﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾.

فالآية الكريمة تذكر بوضوح تحكم النفس فى الاختيار ـ من خلال أمرها بالسؤ ـ ، وهى إحدى الصفات الأساسية للنفس، والتى ذكرت فى موضعٍ آخر فى الآية (٢) من سورة القيامة فى قول الله تعالى ﴿بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾.

فلوم النفس يمثل أحد مظاهر التحكم فى الاختيار بين بدائل متعددة، بل إنَّ القرآن أشار إلى مسئوولية النفس عن ارتكاب الجرائم، حيث يقول الله فى سورة المائدة الآية (٣٠) حاكياً عن ابنى آدم قابيل وهابيل:

﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ﴾.

فالنفس هى التى رغبت فى تنفيذ جريمة القتل، بل وقادت الجوارح لتنفيذ تلك الجريمة، وفى ذلك يظهر جانب التوجية الاختيارى من النفس لسائر أعضاء الجسم التى تتعامل مع المؤثرات الخارجية، ونعنى بتلك الحواس «أعضاء الحس».

ونفس المعنى نجده فى عتب يعقوب عليه السلام على بنيه حينما جائوه عشاءً يبكون وهم يخبروه بأكل الذئب لأخيهم يوسف، وكأنَّ يعقوب أحس بكذبهم فقال لهم، وذلك فى الآية (١٨) من سورة يوسف:

﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾.

وفى الآية (١٨٥) من سورة آل عمران يذكر الحق مسئولية النفس الحية عن تذوق الاشياء، وذلك فى قوله تعالى:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾.

وذلك يظهر العلاقة الوثيقة بين النفس وبين الحواس، وهو مالم يستطيع العلم بأدواته الحديثة إلاَّ كشفه منذ زمن قريب.